ثقافة الموت

منذ قديم الأزل ومنطقتنا تعيش في رحى الحروب والويلات، أو الفتوح والانتصارات، وفي كلا الحالين كان الموت غير بعيد عن شعوبها، وهذا ما جعله جزءاً لا يتجزأ من ثقافتها وتراثها وحتى كلامها.

لاجرم، إذ إن منطقتنا ذات تميز جغرافي؛ لكونها نقطة التقاء القارات الثلاث آسية وأوربة وإفريقية، وذات تميز ديني، فهي مهد الشرائع السماوية الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي مهبط الوحي على الأنبياء، ومكان المقدسات عبر التاريخ، وهي أرض حوى باطنها - وما زال - ثروات الطبيعة بجميع أطيافها من الذهب إلى الماس إلى الفوسفات إلى المعادن النادرة إلى البترول، لذا كانت - وما زالت - محج الطامعين وقبلة الغاصبين من الشعوب الأخرى والدول الأقوى.

هذا الوضع الاستثنائي جعل أهل المنطقة يعيشون مع الموت ويترقبونه ويشاركون فيه أحياناً أخرى، فهم إما مدافعون عن أنفسهم، وإما في مواجهة الآخرين، أو في أفضل حالاتهم فاتحون، ويكاد لا يمر جيل إلا وقد شهد حرباً أو اثنتين، أو ذاق مرارة الفتن التي تحمل الموت في جنباتها، فكل جيل هو إما مترقب لحرب، أو خارج منها، أو في ذاكرته حرب. هذا الشعور العام انعكس على الكلام والأحوال والأمثال الشعبية والتراث والأساطير.

متناقضات

لقد غصت الأمثال بثقافة الموت التي دخلت في كل منحى من مناحي الحياة، وبسبر سريع لما يقال في أي موقف، سواء كان حزناً أو فرحاً أو كان

موقفاً يضج بالحياة، نجد أن الكلمات تميل إلى ما يدل على الموت أو ما سار في ركبه، فمثلاً في التعبير عن الحب بكافة أشكاله كانت اللغة تنحو منحى مثل:

تقبرني - تكفِّني - تطلع على قبري- تشكل آسي - تحمل كفني - تقبر عظامي.

وفي الزواج الذي هو عنوان عريض للحياة والاستمرارية البشرية قيل:

"**امشي بجنازة ولا تمشي بجوازة**".

ووصفت الأمثال الإنسان الذي يساير الناس كي لا ينخرط بالمشاكل بالقول:

"**من عاش مداري مات سقيم**" (مداري أي يداري الناس ويماشيهم) ووصفت الإنسان الذي يعمل دون كلال بالقول: "**من هالك لمالك لقبَّاض الأرواح**".

أما الإنسان المحتار بين شيئين: "**عين بالجنة وعين بالنار**"، وللإنسان الذي يطمح للعلا: "**بحب الأنزعة ولو على الخازوق**".

ودخلت الكلمات المدلِّلة على الموت حتى في تفاصيل الحياة العادية والبسيطة واليومية، فالضحك في مجلس ما يستجار من عواقبه فيقال: "**الله يعطينا خير هالضحك**"، وكأن مصيبة ستأتي بعد هذا الوقت المرح، وإن تعب أحدهم جسدياً من أمر ما يقول: "**رفعت الأربعة**"، أي تقليداً للحيوان الذي يموت فيرفع أطرافه الأربعة، أو قيل بالمعنى ذاته: "**العمر بيخلص والشغل ما بيخلص**"، وفي الطعام، فإذا كان الرز دون شعيرية مثلاً يقال عنه: "**متل الميت بالكفن**". كذلك تدفئة أي شيء بارد، طعام أو غيره يقال له: "**كسير سمُّو**". وفي مواجهة أي معضلة تحتاج إلى جهد لحلها يقال: "**الموت بدُّو هز كتاف**" (بدو أي يحتاج إلى)، والذي يهوِّن المشاكل ويكابر على صعوبة أمر ما يقال: "**عم يرشّ على الموت سكَّر**"، ولمن خاف من أمر ما يقال: "**على وشو تراب الموت**".

وكان يقال للأطفال الذين يريدون أكل كل شيء دفعة واحدة: "**كلو رزقتكم قامت القيامة**"، فربط الطعام بنهاية العالم.

أما من تسبب في مصيبة ما ثم تجاهل ذلك فقيل عنه: "**بيقتل القتيل وبيمشي بجنازتو**"، ولمن كان قلقاً بشأن ما: "**النار ما بتحرق إلا يلي كاويها**"، وهنا إن لم تأت الكلمات على ذكر الموت فإنها ذكرت الاحتراق، وهو أسوأ ما قد يحصل لإنسان.

كذلك وصف المثل الإنسان قليل الحيلة بـ: "**الغريق بيتعلَّق بقشة**"، والإنسان المتردد: "**ألف كلمة جبان ولا قولة الله يرحمو**".

ومن الغريب أن تدخل ثقافة الموت في العادات الصحية الجيدة، وهذا منتهى التناقض، فقد قيل في الإشارة إلى فائدة بعض الخضراوات: "**كول اللفت ولو تلفت**" (تلفت أي من التلف).

كذلك الأمر في العلاقات العامة بين البشر دخلت كلمات الموت، فمن كان مثلاً يرتجي الثقة من الآخر قيل: "**من سلَّمك مدبحو لا تدبحو**"، ولمن أوكل إليه مهمة قسمة شيء ما بين أشخاص: "**ما بيدخل قسَّام الجنة**"، ولمن يحكم بين الأولاد: "**قاضي الولاد شنق حالو**" (حالو أي نفسه)، وفي الجدل: "**خود مني ولا تعطيني وإن كنت غلطان قلاع عيني**".

وعن ذكرى الموتى: "**من بعد أربعيني عد سنيني**"، وعن الوهم: "**الوهم قتَّال**".

وعن الخوف: "**الخوف بيقطع الجوف**"، وعن قيمة السجاد العجمي: "**السجاد قبّار صحابو**".

وعن الفروق الطبقية في المجتمع: "**يلي ما بياخد من ملتو بموت بعلتو**" (ملتو أي ملَّته)، وفي الصبر: "**ما بعد الصبر غير المجرفة والقبر**".

ولم تنج الزيجات من ثقافة الموت المتناقضة تماماً مع الموقف، فقيل:

"**قطع راس القط من ليلة العرس**"، وفي وصف المرض في الصيف قيل: "**رشح الصيف أحدّ من السيف**"، وقد وصف الإنسان الوصولي بأنه "**شانق الكيس**"، ولمن يخشى تجربة كل جديد: "**لا بنام بين القبور ولا بشوف منامات وحشة**".

وفي التسامح على ما مضى: "**يلي فات مات**"، ولمن جار عليه الزمن: "**إذا وقعت البقرة بتكتر سكاكينها**"، و لمن لا يرى عيوبه ويرى عيوب الآخرين: "**لو شاف الجمل حردبتو لوقع ونقصفت رقبتو**" (الحردبة هي سنم الجمل، انقصفت أي كسرت)، وللمستضعف في حياته: "**بالع الموس على الحدين**"، ولمن فاته الوقت والأحداث: "**إجاك الموت ياتارك الصلاة**"(إجاك أي جاءك).

إن ما سبق من أمثال وأقوال ترسم صورة صارخة تعكس حزناً داخلياً وفكراً قاتماً يدلل على سيرورة الفكر الشعبي، وسواء كان السبب خارجياً أم تقهقراً داخلياً، فإن استمرارية هذه الثقافة ستنحدر بالمجتمع إلى دركات أدنى، والأحرى بنا أن نستأصل هذا النوع من الثقافة ليحل مكانها ثقافة الحياة الواعدة المشرقة كي يتسلح بها الجيل القادم، ويتطلع من خلالها إلى آفاق واعدة تكون أكثر تفاؤلاً.